﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾

[يوسف: 89 - 92]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من هوانِ الطَّلبِ إلى عظيمِ المفاجأةِ

لمّا عرضوا مَذلَّتهم وشدَّة حاجتهم، وما آل إليه حالهم في أرض الكنعانيّين من حصول الجدب وعدم وجود المؤونة الكافية من الحِنْطة الَّتي تسدُّ هذه الحاجة، ولمّا رأى يوسف ﷺ منهم ما رأى رقَّ لهم وعطف عليهم، فقال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾ من الضَّرب والبيع وغير ذلك، وما فعلتموه مع أخيه من إفراده عن يوسف وإذلاله إذ أنتم جاهلون قُبحَ فعلكم وعاقبته، فأقدمتم على ما أقدمتم عليه، فالمناسبةُ بين الآياتِ هي الانتقالُ من طلبِ الصَّدقةِ، إلى المفاجأةِ العُظمى، والدَّهشة الكبرى في ملاقاة غير المُتوقَّع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِلُونَ﴾: "الجيمُ والهاءُ واللّامُ أصْلانِ؛ أحَدُهُما: خِلافُ العِلْمِ، والآخَرُ: الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنِينَةِ"[1]، ومعنى اتِّصافهم بالجهل في الآيةِ؛ أيْ: في حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وما إليه صائر أمره وأمركم[2].

2) ﴿ءَاثَرَكَ﴾: (أثَرَ): الهَمْزَةُ والثّاءُ والرّاءُ، لَهُ ثَلاثَةُ أُصولٍ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/244.

تَقْديمُ الشَّيْءِ، وذِكْرُ الشَّيْءِ، ورَسْمُ الشَّيْءِ"[1]، و"الأُثْرَة والمأْثَرَة والمأْثُرة، بِفَتْحِ التّاءِ وضَمِّها: المَكْرَمَةُ؛ لأنّها تُؤْثَر؛ أيْ: تُذْكَرُ ويأْثُرُها قَرْنٌ عَنْ قَرْنٍ يَتَحَدَّثونَ بِها"[2]، ومعنى ﴿ءَاثَرَكَ﴾؛ أيْ: فضَّلك الله علينا بالتّقوى والصّبر وسيرة المحسنين[3].

3) ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾: معنى التَّثْريبِ اللَّوْمُ والأخْذُ على الذَّنْبِ[4]، وقال الرّاغب: "التَّثْريب: التَّقريع والتّقرير بالذّنب، قال تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ولا يُعرف من لفظه إلا قولهم: الثَّرْبُ، وهو شحمةٌ رقيقةٌ"[5]. قالَ الزَّجّاجُ: مَعْناهُ: لا إفسادَ عَلَيْكُمْ. وقالَ ثَعْلَبٌ: مَعْناهُ: لا تُذْكَرُ ذنوبُكم. والمُثَرِّبُ: المُعَيِّرُ، وقيلَ: المُخَلِّطُ المُفْسِدُ. والتَّثْريبُ: الإفْسادُ والتَّخْليطُ، والتقْريعُ: أن يَقولَ الرَّجُلُ في وجه الرّجُل عَيْبَه، فَيَقولُ: فَعَلْتَ كَذا وكَذا. والتَّبْكيتُ قَريبٌ مِنْهُ[6]، فترك عليه السلام ذكرَ عيوبِ إخوته، بقصدِ إكرامِهم وعدم إحراجهم.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

حوارٌ نادرٌ وخُلُقٌ عن القلبِ صادرٌ ورفعةٌ يحتاجُها كلُّ قادر

هذه الآيات تنقل حوارًا من أعظم حوارات الإحسانِ في التّاريخ البشريِّ، ومن أشدِّ مسالك الرّحمة والإحسان على الشَّيطان، بذكرِ تذكير يوسف عليه السلام إخوته بما صنعوا به، وهو تذكيرٌ من ورائه عتابُ المُحبِّ لا توبيخ الحاقد، فخاطبهم خطابَ العطف والرَّحمة يُذكِّرهم بفَعلتهم الدّنيئة، ويُقررهم بما فعلوه معه ومع أخيه، وقد أراد منهم أن يعترفوا بذنبهم، ويُعلنوا ندمهم، ويتوبوا إلى الله تعالى، وقد حصل ما أراد، ثم كانت المفاجأة الكبرى بأن تبيَّن لهم أنَّ الَّذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أثر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أثر).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/502.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثرب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (ثرب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ثرب).

يستعطفونه ويسترحمونه هو عزيز مصر، ورجلها الأول وجُذيْلُها المُحكَّك، ومقاليد مصر كلُّها بيده يصرِّفها بطاعة الله وفي طاعة الله القدير.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علَّة الفصل:

معرفةُ جوابِ المظلومِ عند الاقتدارِ تترقَّبه كلُّ نفسٍ

فُصل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ عن سابقه لشبه كمال الاتِّصال، لأنَّ الإخوة لمّا عرضوا عليه مَذلَّتهم السّابقة، وأنَّهم قد مسَّتهم الضّرّاء، وجاؤوا ببضاعة مُزجاة، وطلبوا التَّوفية والتَّصدُّق عليهم، كلُّ ذلك أثار سؤالًا في نفس السّامع مفادُه: ماذا ردَّ عليهم يوسف عليه السلام؟ فجاء الجواب بما قال، ومن هنا فُصلت هذه الجملة عن سابقتها للاستئناف البيانيّ، ومعرفةُ الجواب ممّا تتحفَّز له النَّفسُ وتترقَّبه.

نكتة إيثار أداة ﴿هَلْ﴾ على الهمزة:

جزاءُ أفعالِ الجُهّال من الكرامِ عطاءٌ ورخاء

خاطب يوسف عليه السلام إخوته في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ بعد أن استأنسوا به، والاِسْتِفْهامُ مُسْتَعْمَلٌ في التَّوْبيخِ. و﴿هَلْ﴾ مُفيدَةٌ التَّحْقيقَ؛ لِأنَّها تضمَّنت مَعْنَى (قَدْ) في الاِسْتِفْهام. فَهوَ تَوْبيخٌ على ما يعلمونه محقَّقًا من أفعالهم مع يوسُفَ عليه السلام وأخيهِ؛ أيْ: أفْعالَهُمُ الذَّميمَةَ بِقَرينَةِ التَّوْبيخِ، وهيَ بِالنِّسْبَةِ ليوسُفَ عليه السلام واضِحَةٌ، وأمّا بِالنِّسْبَةِ إلَى بِنْيامينَ فَهيَ ما كانوا يُعامِلونَهُ بِهِ مَعَ أخيهِ يوسُفَ عليه السلام من الإهانَةِ الَّتي تُنافيها الأُخوَّةُ، ولِذَلِكَ جَعَلَ ذَلِكَ الزَّمَنَ زَمَنَ جَهالَتِهِمْ[1]، ولو استعمل الهمزةَ لما اشتملتْ على معنى التَّحقيقِ.

فائدةُ التَّعبير بالفعل الماضي:

ورد التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.

فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾؛ لتحقّق وقوع العلم، وحصوله منهم، وإقرارهم بصدور ما فعلوه به وبأخيه، "والاستفهام ليس عن العلم بنفس ما فعلوه؛ لأنَّ الفعلَ الإراديَّ مسبوقٌ بالشّعور لا محالةَ، بل هو عمّا فيه من القبح"[1]، ففائدةُ التّعبيرِ بالماضي تحقُّق العلمِ بقُبحِ ما فعلوه، وهو ما يزيدُ مِن قُبحِ فعلِهم بعدم أوْبَتِهم ورجوعهم عنه.

تحقُّقُ العلمِ بقُبحِ الفعلِ يزيدُ من قُبحِه

معنى ﴿مَّا﴾ ودلالتها:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ إمّا أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى الَّذي، والمراد: الَّذي فعلتموه مع يوسف وأخيه، وإمّا مصدريَّة؛ أيّ: فعلكم بيوسف وأخيه، ولمّا كان الأمر هنا مُرادًا به تعظيم وتهويل ما ارتكبوه، فهو أمرٌ لا يُقدِم عليه أحدٌ، ولكنَّهم أقدموا عليه غير آبهين بالعواقب، ولا عارفين بما يؤول إليه أمر يوسف من الخلاص من الجُبِّ، ثم ولاية المُلك، فجاءت ﴿مَّا﴾ لتكون من باب توكيد المعنى وتقويته، كما أنَّ التَّعبير بها يُبيِّن ما حدث في قلب يوسف عليه السلام، لكنَّه لا يريدُ أن ينصَّ على شيءٍ ممّا حدث، فذَكَره مُبهمًا مطويًّا.

غصّاتُ الكرامِ تبقى مدفونةً في القلبِ لا ظاهرةً في اللِّسان

دلالة التَّعبير بالفعلِ دون الصنعِ:

جاء التَّعبيرُ بالفعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ دون أن يقول لهم: (ما صنعتم)، وظاهر ما صنعوه أقرب للصُّنعِ، وذلك أنَّه لا يُريد إشعارَهم بقصدِهم لما صنعوه من تبييت الأمر، وتدبير المَكْر، بل أراد أن يُشير إلى أنَّه صدر عنهم فعلٌ هم أدرى النّاس بتفاصيلِه، فالفِعْلُ عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعِلم أو غير عِلْم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، والصّنعُ أخصُّ منه[2]، فكان استعمالُ الفعل كالإشارةِ إلى الصُّنعِ، وهم أدرى بحقيقةِ الأمرِ، وخفيِّ الفعال.

رُبَّ إشارةٍ خيرٌ من ألفِ عبارة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/47.
(2) الرّاغب، المُفردات: (فعل).

معنى الباء ودلالتها:

الأســـى يبـقى مُلتصقًا بصاحبِه لا يُفارقه

الباء في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ للتَّعدية وهي التَّعدية العامَّة، وهي إيصال معنى العامل إلى المجرور على المعنى الَّذي يقتضيه الحرف، وهو بيان ما أوقعه هؤلاء الإخوة بيوسف من الضَّرب والرَّمي في الجُبِّ، وما فعلوه مع أخيه من إفراده وإذلاله وحرمانه من أخيه ابن أمِّه الوحيد، فالفعلُ تعدَّى إلى يوسف عليه السلام وأخيه، فهو واقعٌ عليهما دون غيرِهما، إذ هما المقصودان قصدًا تبييتيًّا.

نُكتة ذِكْر ﴿وَأَخِيهِ﴾ دون التَّصريح بالعَلَم:

كـراهيـةُ الأصـلِ تـورِّث الإسـاءةَ للتّابعِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ذَكَر صِفةَ الأخ دون ذِكْر الاسمِ العَلَم كما صرَّح باسم (يوسُفَ)، وذلك لكونه معلومًا لديهم، وليس في عدم التَّصريح باسمه ما يُشكل عليهم، فهو معلومٌ لديهم غيرُ مُنكَر لا باسمه ولا بصفته. أمّا يوسف فلكونه مجهولًا عندهم لانقطاع خبره عنهم، وظنِّهم أنَّه قد هلك أو ذهب إلى غير رجعة، فقطعوا أنفسهم من أمرِه وصار في حكم المجهول عندهم، لذا نصَّ على ذِكْر اسمه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه المقصود بالذِّكر، ولذلك عرفوه مباشرةً، كما أنَّ فيه بيانَ أنَّ الإساءةَ لبنيامين كانت بسبب علاقتِه بأخيه يوسف عليه السلام.

قال الزّمخشريُّ: "فإن قلتَ: ما فِعْلُهم بأخيه؟ قلتُ: تعريضُهم إيّاه للغمِّ والثَّكل بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يُكلِّم أحدًا منهم إلا كلام الذّليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى"[1].

براعة تكرار عبارة ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾:

وردت عبارة ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ على لسان يعقوب عليه السلام في قوله

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/341.

تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾، وعلى لسان يوسف ﷺ هنا، وذلك لما بين اللِّسانين من ترابطٍ، فأجرى الله على لسانَيْهما تلك العبارة الواحدة؛ للإيماءِ إلى أنَّها صادرةٌ عن لسانٍ واحدٍ، وهو لسانُ الحقِّ، فالأولى جاءت ابتداءً لطلب التَّحسُّس، والأخرى جاءت انتهاءً في حصولِ غايةِ التَّحسُّس.

عـبـارةٌ جـاءت في ابـتـداءِ طلبِ الـتَّـحـسُّـس وانتهاءً بتحقيقه

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتُها:

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ حينيَّة بمعنى الزَّمن، وهي هنا لازمةٌ للإضافة؛ فهي مضافةٌ إلى الجملة الاسميَّة ﴿أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾: ومُرادها الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة هنا؛ أيْ: حين جهلكم بما فعلتموه، وهي متعلِّقة بقوله: ﴿فَعَلۡتُم﴾، والمعنى: فعلتم ذلك وقت جهلكم. ففيه إيماءٌ إلى إعذارهم المؤدّي إلى مسامحتهم.

الإيـمـاءُ إلى الإعـذارِ بـريـدُ التَّسامح

فائدة تقديم المُسنَد إليه ومجيء المُسنَد اسم فاعل:

أفاد تقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَد في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ التَّخصيصَ أو تقويةَ الحُكم الإسناديّ، أمّا فائدةُ التَّخصيصِ فقد قال لهم ذلك: "تلويحًا لهم إلى معرفته، وتذكيرًا بالذّنب ليتوبوا، وتلطُّفًا معهم في ذلك المقام الّذي يتنفَّس فيه المكروب، وينفثُ فيه المصدور، ويشتفي فيه المغيظُ المُحنَق، ويُدرك ثأره المَوْتور، بتخصيص جهلهم - بمقتضى ﴿إِذۡ﴾ - بذلك الزّمان، إفهامًا لهم أنَّهم الآن على خلاف ذلك"[1].

لا شيء يغلب الجهل في وقوع الـعـداوة بين الخلق

وأمّا تقويةُ الحُكم؛ فهو إثباتُ حُكمِ الجهلِ لهم لا لغيرِهم ممَّن يصحّ أن تقع منهم العداوةُ والبغضاء والإذلال والإبعاد، وجاءَ المسندُ اسمَ فاعلٍ ﴿جَٰهِلُونَ﴾ للدّلالة على الثُّبوت والاستمرار، حتَّى الجهل كان صفةً لازمةً لهم زمانَ فعلهم ذلك لا يبارحهم قيد أنملة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/201.

غلًّا وحسدًا وحقدًا، ولمّا كانت فعلتهم وجُرمهم من أهول الأمور وأفظعها؛ وُسِموا باسم الفاعل كنايةً عن ثبوت هذه الفعال بالجهل الّذي لا يفارق صاحبَه.

براعةُ الإيماءِ دون التَّصريح:

الكِرامُ يتلطَّفون مع المذنبين فتحًا لبابِ الأوبةِ

آثر يوسفُ ﷺ استعمالَ الجهل في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ دون الحسد والكيد وهم واقعون فيهما لقصدِ التَّلطُّفَ بهم بعد حالِهم الّذي وصلوه، ومنزلتهم الّتي بلغوها من الفقر والعَوَز والاحتياج، فمنزلةُ الكِرام التَّذكير بعمومِ الأفعال لا بخصوصِ الخبائث، فإنَّهم يُدركون مبادئ أفعالهم، ويستحضرون كيدَهم، وحسدهم وغِلَّهم، وذِكْرُ الجهل مفتاحُ كلِّ خبيئة، وشأنُ كرامِ الخلقِ أن يُشيروا لا أن يُعبِّروا، وأن يُلوِّحوا لا أن يُصرِّحوا.

علَّة فصل الفصل وبلاغتُه:

دَهْشةٌ تُناسب عِظَمَ المفاجأةِ

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ عن سابقته؛ لشبه كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّه لمّا أخبرهم بحالهم وما ارتكبوه في حقِّه وحقِّ أخيه وما كان من جهلهم، وبعد ما عرفوا من شمائله وكريم سجاياه سألوه: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ على طريقةِ المحاورات، حيث فاجأهم بهذا الكرم وهذا الحنوِّ، فأقرَّ لهم بكونه يوسف الَّذي فعلوا به وبأخيه ما فعلوا، فأثارت جملة ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا السؤالَ.

غرضُ الاستفهامِ وسرُّ ذِكْر يوسف دون أخيه:

التَّعَجُّبُ مِنِ انعكاسِ الأحوالِ وتنكيسِ المقاصد

توجَّه سؤالُ الإخوة عن يوسف ﷺ دون أخيه في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ "لكون مقصودهم هو تحقيق كونه يوسف ﷺ وتقريره، وأُكِّد الكلام الاستفهاميّ بـ (إنَّ) و(لام الابتداء) تعجُّبًا منه"[1]، فالاستفهامُ تعجُّبيٌّ تقريريٌّ.

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/74.

ومقصود الإخوة السّؤال عن هذا الغائب المقطوع خبره عنهم هذا الزّمن الطَّويل، ومن هول المفاجأة، وممّا رأوا فيه من كرم الشّمائل، والَّذي لا يفعله أحدٌ إلّا مع أقرب النّاس إليه، حتَّى وإن ارتكبوا معه أفظع الجرائم، وقد هالهم سؤاله عمّا فعلوه وتذكيرهم بهذه الفعال، وما الَّذي دفعه إلى أن يُخبرهم إلّا إذا كان عالمًا بما فعلوه، ومَنْ هذا الَّذي هاله ما وقع له إلّا أن يكون هو نفسه يوسف الَّذي سألوا عنه.

أمّا عدم السُّؤال عن أخيه، فلأنّ أمره معلومٌ لديهم، ظاهرٌ أمامهم لا يحتاج معه إلى أمر السُّؤال عنه، فأمر بنيامين ظاهرٌ عندهم في كونه مرهونًا بسرقته. أمّا مدار العَجَب وحيرة النَّفس فهو إظهار أمر يوسف وكيف وصل إلى ما وصل إليه، فكان السُّؤال عنه خاصةً.

براعةُ التَّأكيد وأثرُه في تصوير المشهد النَّفسّي:

الأعمال بخواتيمها، والعبرة بالمآلات

ورد قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ مؤكَّدًا بأكثر من مؤكِّد وهي: (إنَّ)، و(اللّام)، و(الجملة الاسميَّة)، والمُراد تأكيد الحُكم ونسبته، وهنا أكَّد الإخوة كلامهم مع يوسف عليه السلام لكونهم صاروا مُتأكِّدين أشدَّ التَّأكُّد أنَّه هو أخوهم الَّذي ألقوه في البئر؛ لأنَّه لا يخبرهم بهذا الَّذي فعلوه إلّا هو عليه السلام، فلم يطَّلع أحدٌ غيرهم على ما فعلوه، فالتَّأكيد راجعٌ إلى حال المُتكلِّم. قال الدكتور محمد أبو موسى: "وهناك ضروبٌ من التّوكيد لا يُنظر فيها إلى حال المُخاطَب، وإنّما يَنظر فيها المتكلِّمُ إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النّفوس كما أحسَّها مقرَّرة أكيدة في نفسه، وهذا اللّون كثيرٌ جدًّا، وله مذاقاتٌ حسنة"[1].

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 127.

بلاغةُ الجوابِ في خُلوِّه من المؤكِّدات النَّظيرة:

تـصـويـرُ حـالـةِ الاطـمـئـنـانِ، في مـقـابـلِ حـالـةِ الاضطرابِ

خلا جواب نبيّ الله يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ من المؤكّدات المؤكِّدات، فلم تكن على نظيرِ ما قاله الإخوة: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾، فلم يَقُلْ: (إنّي لأنا يوسف)، فذَكَر كلامَه خاليًا من المؤكّدات الكثيرة الَّتي وردت في كلامهم؛ لأنَّ الأمر قد ظهر واستبان ولم يَعُد بحاجةٍ إلى تأكيد، وهم الآن مُتأكِّدون تمامَ التَّأكُّد أنَّ الَّذي يُحادثهم هو أخوهم يوسف ﷺ، وفي خلوِّ الكلام من أدوات التَّأكيد ما يُصوِّر موقف المطمئنِّ في صوته، المُستقرّ في هدوئه، الثّابت في إيمانه، الحليم في نظراته، وهو ما يعكس طبيعةَ الموقف الضِّدّي، فيجعله في منازلِ الكرامة، ويجعلهم في منازل أخرى.

بلاغةُ العدولِ عن الجوابِ الموجز إلى التَّكرار:

تـكـرارُ الألـفـاظِ نفسِها قد يحملُ من المعاني ما لا تحملُه المُغايَرة بينها

في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ إطنابٌ وعدولٌ عن الإيجاز بأن يجيبهم بقولِه: (نعم)، لكن لمّا كان الكلامُ في معرض المجادلة والإنكار بين طرفيْن: طرف سوَّلت له نفسه ففعلَ ما فعل من ظلم واضطهاد وإهانة وإذلال، وطرف أعزَّه الله تعالى بعد كلِّ ما حدث معه، وأمامه الطَّرف الأول في موقف المذلَّة والحاجة والعَوَز، ومع سؤالهم سؤالَ المُتعجِّب بعد ظهور ما كان مُغيَّبًا في أفق الزَّمان وانقطع خبره، فلا بدَّ أن يأتي منه الجواب بإطالة الكلام وتَكرار ما صدر عنهم في مضمونِ السّؤال، وذلك لإيقاع المُتعجَّب منه موقعَ الأكادةِ والتَّحقيق، وهذا أقوى في الإجابة من الاكتفاءِ بنَعَم، كما أنَّ في إعادة الاسم الظّاهر من التَّبكيت الموجَّه لهم ما فيه، كأنَّه قال: أنا يوسف الَّذي ضربتموه وألقيتموه وبعتموه.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للقريب:

إكرامُ المُشارِ إليه بمنزلتِه العاليةِ ومكانتِه الغالية

المُراد بالأخ في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾: أخوه من أبيه وأمِّه، وقد ذكره تعريفًا لنفسِه به، وتفخيمًا لشأنه، وإدخالًا له في قوله:

﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بالسَّلامة والكرامة، وورد تعريفُه باسم الإشارة دون التَّصريحِ باسمه؛ لقصد تمييزه أكمل تمييز، فإنَّ الإشارةَ إلى المخاطَب أمام الحاضرين له وقعٌ لا يَخفى، وفيها تأكيدٌ لرِفعةِ المُشار إليه عند المُشير، وهو هنا "خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعْجيبِ من جَمْعِ الله بَيْنَهُما بَعْدَ طولِ الفُرْقَةِ"[1]، وعبَّر باسمِ الإشارة للقريب لكونه موجودًا أمامهم لا يُنكرونه، ويرون ما آلَ إليه حالُه مع أخيه.

دلالةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيق:

مجيء ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ مرادٌ به التَّحقيق؛ أيْ: تحقيق المَنِّ الإلهيّ، كما أنَّها تجتمع لكلِّ فعلٍ مُتجدِّدٍ من عطاء الله تعالى لعباده والامتنان عليهم. والمَنّ الَّذي منَّ الله تعالى به على يوسف وأخيه هو العزُّ في الدُّنيا والآخرة، أو الجمع بينهما بعد الفُرْقة الطَّويلة والعزَّة بعد الذِّلة، والأُنس بعد الوَحْشة" فَجُمْلَةُ ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بَيانٌ لِلْمَقْصودِ من جُمْلَةِ ﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾"[2].

نسبةُ الفضلِ إلى صاحبِه من شيمِ أهلِ الفضلِ

نكتةُ اختيارِ لفظِ (المَنِّ):

عبَّرت الآيةُ بلفظ (المَنّ) في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ دون لفظِ الإنقاذ أو الإنجاء، وهو مأخوذٌ من المِنَّة، وهي (النّعمة الثّقيلة)[3]، وذلك إذا صدرت عن المانِّ، أمّا إذا قالها المنون، فهي النِّعمةُ الجزيلة، وما ورد من التَّعبير بالمنِّ هو المناسب؛ إذ أنعم الله على يوسف أنْ حفظه في غيابات الجُبِّ، ثمّ أنْ أرسل إليه مَن يتولّاه وهم السّيّارة، ثمَّ أنْ مَنَّ الله عليه بحفظه من الوقوع في شَرَك الرَّذيلة مع امرأة العزيز، ثم إخراجه من السِّجن، ثمَّ تمَّت المنَّة الكبرى بأنْ صار عزيز مصر الَّذي احتاج إليه ظالموه، فاستعطفوه

المنُّ لفظٌ يعمُّ الإفضالَ كلَّه ويشمل الإنعامَ جميعَه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.
(3) الرّاغب، المُفردات: (منَّ).

وتمنَّوا رَفده وكَرَمه، ثمَّ أنْ جمع الله تعالى له شمله بأخيه، وهذا أوْلى من ذِكر لفظِ (الإنقاذ)؛ لأنَّه خاصٌّ في التَّخليصِ من ورطةٍ[1]، أو لفظِ (الإنجاء)؛ لأنَّه خاصٌّ في التَّخليص من هلاك[2]، فجاء استعمال المَنِّ الَّذي أدَّى المُراد، وأوفى على الغاية، تصويرًا لكرم الله وحفظه، وصيانته لهذا النَّبي الكريم ﷺ.

فائدةُ ذكرِ اسم الجلالة:

الله تعالى هو المانُّ بالنِّعم الكبيرة والعطايا الجسيمة

ذُكر اسمُ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾؛ لكون الفاعل - وهو هنا المُسند إليه - أصلَ العطاء والإنعام، ولتعظيمه سبحانه وإعظام عطائه، فلا مناص من ذِكْره ولا مُقتضى للعدول عنه، فإنَّه لا يمنح النِّعم الكبيرة والعطايا الجسيمة إلّا هو، وذِكْره تعالى هنا ليتميَّز عطاؤه عن عطايا البَشر؛ فإنَّه سبحانه إذا أعطى أجزل في العطاء.

دلالةُ استعمال حرف الاستعلاء:

كرم الله تعالى إعلاءٌ للمُكرَمِ ورفعةٌ للممنونِ عليه

مجيءُ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ حقيقة مع الجمع، إذ المَنُّ عليه بما فعل الله معه من الحفظ والصّيانة، وإنزاله أكرم المنازل وأعلاها، وعلى أخيه إذ خلَّصه من إيذاء إخوته وإهانته، وجمعه بأخيه الغائب الَّذي افتقده طويلًا، فأراد يوسف ﷺ أن يُبيِّن بأنَّ كرم الله تعالى ومنَّه قد علاه، وعلا أخاه حتَّى أحاط بهما من جميع الجوانب، فهو في عُلوٍّ من أمره هو وأخوه بإعلاءِ الله تعالى لهما، ومَن أعلاه الله تعالى فهو عالٍ لا خفض معه، كما أنَّ حرف العُلوِّ هنا مناسبٌ لما صار إليه حاله ﷺ من العُلوِّ والرِّفعة، وكذا لما صار إليه أمر أخيه.

(1) الرّاغب، المُفردات: (نقذ).
(2) الرّاغب، المُفردات: (نجو).

علَّة فصل الجُملِ ودلالته:

الاستئنافُ البيانيُّ من أدوات التَّعليل وأغراضِ شفاءِ الغليلِ

فُصلت هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ عن سابقتها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ، وكأنَّه لمّا قال لهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَاۖ﴾ سألوه: وما الَّذي أوصلكما إلى هذه الحال؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من باب شبه كمال الاتِّصال؛ ففُصلت هذه الجملة عن سابقتها لهذا الغرض.

وهي كذلك "تَعْليلٌ لِجُمْلَةِ ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَاۖ﴾، فَيوسُفُ ﷺ اتَّقَى اللّه وصَبَرَ، وبِنْيامينُ صَبَرَ ولَم يَعْصِ اللّه فَكانَ تَقيًّا. أرادَ يوسُفُ ﷺ تَعْليمَهُم وسائِلَ التَّعَرُّضِ إلَى نِعَمِ اللّه تعالى، وحَثَّهُم على التَّقْوَى والتَّخَلُّقِ بِالصَّبْرِ تَعْريضًا بِأنَّهُم لَم يَتَّقوا اللّه فيهِ وفي أخيهِ، ولَم يَصْبِروا على إيثارِ أبيهِم إيّاهُما عَلَيْهِمْ. وهَذا من أفانينِ الخَطابَةِ أنْ يَغْتَنِمَ الواعِظُ الفُرْصَةَ لِإلْقاءِ المَوْعِظَةِ، وهيَ فُرْصَةُ تَأثُّرِ السّامِعِ وانْفِعالِهِ وظُهورِ شَواهِدِ صِدْقِ الواعِظِ في مَوْعِظَتِهِ"[1].

معنى ﴿مَن﴾ ودلالتُها الشَّرطيَّة:

شرطُ الثَّواب تقوى الله والصَّبر على المِحَن

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ اسمُ شرط جازم في محلِّ رفع فاعل، والمعنى: مَن يتَّقِ معاصي الله ويصبر على أذى النّاس تقوى كاملةً صحيحةً وصبرًا يذوده عن الانجرار وراء المعاصي، فإنَّ الله لا يضيع أجرَه، وعلى قراءةِ قنبل - أحد راويي ابنِ كثير المكيِّ - (يتَّقي) بالياء وصلًا ووقفًا[2]، فيكون معنى ﴿مَن﴾: الَّذي؛ وعليه فلا جزم للفعل، وكذلك ما عطف عليه من فعل، ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ في موضع رفع، والأحْسَنُ أنْ يَكونَ (يَتَّقي) مَجْزومًا على لُغَةٍ، وإنْ كانَتْ قَليلَةً[3]، وعليه فـ﴿مَن﴾ تبقى شرطيَّةً جازمةً،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.
(2) ابن الجزَريّ، النّشر: 2/297.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/321.

ودلالةُ الشَّرط حاضرةٌ قويَّةٌ، فشرطُ ثوابِ الله تعالى تقواه والصَّبر على المِحَن.

سرُّ تقديم التّقوى على الصَّبر:

الـصَّـبر وِكـاءُ الـتَّـقـوى؛ فـإن انفلت الـوِكـاءُ ضاعت التَّقوى

قُدِّم ذِكرُ التَّقوى على الصَّبرِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ التَّقوى هي الغاية العظمى، والصّبر أداةُ المحافظةِ عليها؛ وعليه؛ فمجيءُ فعلِ التَّقوى مقدَّمًا لأنَّ الوقاية مِن نزعات النَّفس تتحقَّق أولًا، فتكون حصنًا حصينًا لعدم انحرافها، ثمَّ يأتي بعدُ حبسُ النَّفْس وتصبُّرها على ما يَعرِض، فإذا اتّقى الإنسان ربَّه، وراقبه مراقبة الواثق بما لديه من الهِبات والعطايا، صبرت نفسه على البلايا والطّاعات؛ فابتعدت عن المعاصي، ومِن هنا قدَّم يوسف ﷺ التَّقوى لكونها البابَ الأقوى لسدِّ نزغات الشَّيطان، ثمَّ تلاها صبرُه على شهوات نفسِه وتسويلات الشَّيطان، ودومًا تُعَدُّ الغاية مقدَّمة على الوسيلة، وقد يجوز عكس ذلك؛ فيقع معنى الصَّبر أولًا في نفس العبد، ثم يُكمله بالتَّقوى من باب التَّخلية قبل التَّحلية.

نكتةُ حذفِ متعلّقات التَّقوى والصَّبر:

التَّـقـوى سلوكٌ ثابتٌ لله تعالى والصَّبرُ معذوقٌ بها

يحذف المفعول به لأنَّ مقصود المتكلِّم الأوّل وغرضه الأسمى إثبات الفعل لفاعله فحسب دون النَّظر لمفعوله؛ إمّا إيجازًا، وإمّا لكونه معلومًا بدلالة الحال، والخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ لأبناء الأنبياء، فمعرفةُ مَن يُتَّقى ويُصبر على طاعته ويُكفُّ عن معصيته من المُسلَّمات، أو لكون المُراد من الحذف توجيه النُّفوس لإثبات الفعل للفاعل، وعدم الانشغال بالمفعول لكونه معلومًا لا يُحتاج إلى ذِكره ممّا يَرسخ في الطَّبع والنَّفس، ولا يغيب عن بالهم، والمُراد: مَن يتَّق الله ربَّه في جميع أحواله إتيانًا وتركًا، ويصبر على الضّرّاء وما تجلبه للإنسان من ضجرٍ أو سُخط، وعن المعاصي المهلكة.

وهو هنا يُعرِّض بهم في كونه ﷺ وأخيه قد اتّقيا اللّه وصبرا على أذاهم؛ فنالهما من الشَّرف والعزِّ ما لم ينالوه بالجُرْم الَّذي ارتكبوه.

فلم يَقُلْ: (إنَّه مَن يتق اللّه ويصبر على المصائب)، بل أطلق الفعلَيْن لبيان أنَّ التَّقوى سلوكٌ ثابتٌ، ولا ينصرف عند إطلاقه إلّا للّه تعالى، والصَّبر على كلِّ شيء ممّا يتوقَّعه المؤمن وما لا يتوقَّعه، وهذا أمْدحُ وأرسخُ من التَّقييدِ.

معنى الفاء:

هـل جـزاء الإحسان إلّا الإحسان؟

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ رابطةٌ للجواب، وجوابها جملة اسميَّة مؤكِّدة لمضمون وجزاء المتَّقين الصّابرين، فإنَّه مَن يتَّق اللّه فيراقبه ويصبر على البلايا والمِحَن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أيْ: لا يُبطل أجرهم، ولا يُضيعُ إحسانهم؛ بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء.

غرضُ التَّأكيد:

توكيدُ المعاني الثّابتة من شأنه طلبُ الزّيادةِ لتوريث الطُّمأنينة والسَّكينة

ورود التَّوكيد بأداةِ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ربطًا للجملة بما قبلها، بحيث لو أُسقطت لذَهَب رونق النَّظم، وأصبح الكلام مُفكَّكًا لا ميزة له ولا روح فيه، ومجيء ضمير الشَّأن مع (إنَّ) تجد له رونقًا وطلاوةً يكسوان اللَّفظ، ودقَّةً وقوَّة يزيدان في المعنى. وجاء الكلام هنا مؤكَّدًا لإزالة أيِّ شكٍّ أو إبهام يقع في خَلَد هؤلاء الإخوة في شأن جزاء المتَّقي الصّابر؛ أيبقى له أم يذهب سُدى لا نفع فيه ولا جدوى من ورائه، فجاء كلامه قاطعًا عليهم بابَ الشُّبهة أو الشَّك، كما أنَّ هناك غرضًا آخر للتَّأكيدِ، وهو ما يُحدثه في نفسِ المتكلِّم؛ فإنَّ المتكلِّم يُؤكِّد لنفسِه مضمونَ الخطابِ لما يورِّثه من طلب الاستزادة شكرًا وطُمأنينةً وعافيةً.

فائدةُ تقديمِ المُسندِ إليه على المُسنَدِ الفعلِّي المَنفيِّ:

ربُّك الكريم هو الَّـذي لا يضيع عنده أجر المتَّقين الصّابرين

جاء المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة المُعظَّم مُقدَّمًا على المُسندِ الفعليِّ المَنفيّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لقصد التَّخصيص وتقوية الحكم، والمُراد بالتَّخصيص: تخصيصه ﷻ بكونه الكريم الَّذي لا يضيع عنده أجر المتَّقين الصّابرين المُحتسبين المُحسنين، وأمّا تقوية الحُكم فتأكيد عدم ضياع أجر المحسنين عنده ﷻ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الجلالة:

آثارُ الهَيْبَةِ زيادةٌ فـي الـتَّرهـيـبِ والتَّرغيب

ذُكِر اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعظيمًا لقَدْره وكرم عطاياه على عباده المحسنين، وأنَّه سبحانه هو الحافظ لعباده المتَّقين بأُجورهم، فلا تضيع عنده، فهو أصلٌ في ذلك، ولا مقتضًى للعدول عن ذكر اسمه، إلى جانب ما في الذِّكر من التَّنبيه والتَّبكيت لهم، فكأنَّه يقول لهم: (الله تعالى الَّذي نسيتم مراقبته لكم واطّلاعه على أفعالكم هو نفسه سبحانه الَّذي ما ضيَّع لي أجرًا)، وفي الذِّكْر أيضًا إقرارٌ واعتراف بجميل صنع الله تعالى معه ﷻ.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الضَّياع:

أدنـى درجـاتِ الإهـمـالِ غـيرُ متـصـوَّرةٍ فكيف بعظيمِها؟!

التَّعبيرُ بلفظِ الضَّياع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أبلغ من لفظِ الذَّهاب والخُسران؛ فلم يقل: (فإنَّ الله لا يُذهب ونحوه)؛ وذلك لأنَّ في الذّهاب والخُسران أملًا في عودة ما ذهب، وتعويض الخسارة بأيِّ وجهٍ من الوجوه، أمّا الضّياع فهو ذهابٌ وافتقادٌ بلا عودةٍ، وإذا ضاع الأجر من العبد فلا يعود، وإن بذل في سبيله كلَّ الوسائل، وفيه من التَّنبيه على أنَّ أدنى درجات إهمال الأجر غير حاصلة، فإن الضَّياع هو إهمالٌ للقليل والكثير.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

نفيُ الضَّياعِ فيه إثباتُ الحفظِ الدّائمِ

التَّعبير بالفعل المضارع المَنْفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يُضِيعُ﴾ جاءَ للدّلالة على عدمِ تجدُّدِ هذا الضَّياع وعدم استمراره مع استحضار صورة حفظِ اللّه تعالى لعبادِه المحسنين، وفيه لفتٌ إلى كرمِ اللّه الواسع على مَنِ التجأ إليه وفوَّض أُموره إليه ﷻ؛ كما أنّه إذا كان تجدُّدُ الضَّياع منفيًّا فإنَّ تجدُّدَ الحفظِ ثابتٌ للعبادِ.

توجيه تخصيصِ الإحسانِ بالذِّكر:

قُبَّةُ الشَّرف والمعالي أن تلحق بركْب المُحسنين

آثر النَّظمُ تخصيص صفةِ الإحسانِ بالذِّكر دون التَّقوى أو الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، والمحسن هو مَن جمع بين التَّقوى والصَّبر، والإحسان هو أعلى الدَّرجات بدليل ذِكْره في حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل[1]؛ وذلك حين سأل جبريلُ رسولَ اللّه ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فجاء الإحسان آخر الدَّرجات وأعلاها مِن باب التَّرقي من الأدنى إلى الأعلى، إذْ هو جِماع خصال الإسلام وأسسه وأركانه وقواعده، ولقيامه على المراقبة الَّتي نسوها وهم يرتكبون جُرمهم، ففي الإحسان يتَّحقَّق الإسلام والإيمان كما يتَّحقَّق الصَّبر والتَّقوى، فهو جامع لكلِّ هذه الأوصاف والمعاني.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

رُبَّ إظهارٍ أتى بواطنِ المُضمرات

وُضع لفظُ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ موضع الضَّمير؛ ومن ثَمّ يكون التّقدير: (فإنَّ اللّه لا يُضيع أجرهم) العائد على المتَّقين الصّابرين، وذلك "للتَّنبيه على أنَّ المُحسن مَن جمع بين التَّقوى والصَّبر، فمَن وُصِفَ بهذيْن الوصفيْن نُعت بوصف الإحسان"[2]، فهو تعريفٌ للإحسان بأنَّه

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الإيمانُ ما هوَ وبَيانُ خِصالِهِ: الحديث رقم: (9).
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 5/74، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/49، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/214.

الجامع بين التَّقوى والصَّبر، "وَلِلتَّعْميم في الحُكْم ليَكونَ كالتَّذْييلِ، ويَدْخُلَ في عُمومِهِ هوَ وأخوهُ. ثُمَّ إنَّ هَذا في مَقامِ التَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ. وإظْهارُ المَوْعِظَةِ سائِغٌ لِلْأنْبياءِ؛ لِأنَّهُ من التَّبْليغِ كَقَوْلِ النَّبي ﷺ «إنّي لَأتْقاكُم للّه وأعْلَمُكُم بِهِ»"[1].

فائدةُ استعمالِ حرفِ التّاءِ للقَسَم:

توكيدُ العَجَب الظّاهر والحسرة الباطنةِ

لمّا سَمِع إخوةُ يوسف عليه السلام كلامَ أخيهم، وأنَّه لا يصدر إلّا ممَّن سَمَتْ أخلاقه وارتفع قدره؛ قالوا وهم مُتعجِّبون غايةَ العجب: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فأقسموا مُستخدمين أداة قسَمٍ اختُصَّت بهذا المقام، وهو مقام التَّعجُّب، وهذه الأداة هي حرف جرٍّ معناه القَسَم، وتُختصّ بالتَّعجُّب وباسم الله تعالى، وممّا اختُصّت به أيضًا أنَّها مُجرَّدةٌ من الخطاب، والتزم فيها التَّذكير والتَّأنيث، كما أنَّها حَوَت من معاني التَّوكيدِ الممزوجِ بالتَّعجب الظّاهر والحسرة الباطنة ما لا يخفى على متأمِّلٍ.

غرضُ حشد المؤكِّدات:

اعترافٌ بالذَّنب ورجوعٌ إلى الحقِّ ورضوخٌ لحُكم الحقِّ

حشد الإخوة عددًا من المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، ولمّا كان موقفُهم موقف المتعجِّب ممّا وصل إليه حالُه من السّموِّ والرُّقيّ والعزَّة والرِّفعة، فقد تمثَّلوا ما فعلوه معه في الماضي فانتابهم الخزي والخجل وما قابلهم به من الإحسان، فقالوا في استعطاف وتذلُّلٍ ما قالوا، وقد تعدَّدت المؤكِّدات بالقَسَم واللّام - وهي هنا جواب القَسَم - و(قد) المفيدة للتَّحقيق، وإنَّما ذكروا كلَّ هذا اعترافًا منهم بذنبهم وجريرتهم ليفتحوا سبيل القرب منه بالعفو والصَّفح، وهو تعريضٌ ببيان مكانه ومكانته، وتعريضٌ بندمهم ورجوعهم إلى الحقِّ، وهذا شأن الكرام وطباع نفوس الكبار عفوها عن الزّلّات ورجوعها إلى الحقِّ، مع ما في ذلك من الحسرةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.

الدّاخليَّة لما وقع منهم، فتمنَّوا أن يكونوا مكانَه، لكن هيهات لِمَن لا يمتلكُ طاقةَ التَّقوى المُحاطة بسياجِ الصَّبر.

براعةُ إيثارِ لفظِ الإيثارِ:

آثر النَّظمُ استعمالَ لفظِ الإيثارِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ فلم يَقُلْ: (لقد فضَّلك الله علينا)؛ وذلك أنَّ الإيثارَ أوسع وأشمل من مرادفه التَّفضيل كأنَّه ﷺ قد استأثر بجميعِ الخصال الكريمة، حتَّى آثره الله بها ومنحها إيّاه، حتَّى كان أفضل منهم وأعلى منهم ذِكْرًا، فهو ليس مجرَّد تفضيلٍ، إذِ التَّفضيل يُشعر بوجودِ فضلٍ لدى الطَّرفيْن أحدهما أرسخ من الآخر، لكنه هنا إيثارٌ كُلِّيٌّ، ويُرشحه استعمال حرفِ الاستعلاءِ، ولمّا كان الأمر متعلِّقًا بالنُّبوّة، فإنَّ التَّفضيل غير متصوَّر، لأنَّ التّفضيل يكون بين الأنبياءِ، وهنا لا تفضيلَ بل إيثار.

التَّفضيلُ يكون بين المتساوين، أمّا درجةُ النُّبوّة فهي إيثارٌ واختيار

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

صرَّحتِ الآيةُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ دون التَّعبير بالضَّمير الّذي يعود عليه ﷺ، فلم يَقُلْ: (لقد آثرك علينا) تعظيمًا للمؤْثِر ﷺ، إذ إنَّه لا يقع هذا الإيثار إلّا منه ﷺ، إلى جانب ما في ذلك من تربيةِ المهابة للمانحِ الأعلى ﷻ، المأخوذ من التَّعبير بالاسم الصَّريح دون ضميره؛ فقد "أدرك البلاغيّون وحيَ الكلمة وعملها بما يثيره لفظها من شؤونٍ في النَّفس لا يستطيعُها الضَّمير العائد عليها"[1].

تربيةُ المهابةِ للمانحِ الأعلى ﷻ

دلالةُ استعمال حرفِ الاستعلاء:

يَرِد الحرف (على) "للاستعلاء حقيقةً أو مجازًا، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ ورد حرفُ الاستعلاءِ مُرادًا به عُلوَّ قدر يوسف ﷺ، وهي هنا معلِّلة لإيثاره عليهم، وهم إنَّما قالوا

اعترافٌ صريحٌ في رفعةِ الصِّدّيقِ وعلوِّ مكانته

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 284.

ذلك لمّا رأوا ما هو فيه من المكانة والعلوِّ لدى أهل مصر جميعًا وعلى رأسهم ملك البلاد، والمُراد: اختارك الله علينا بحسن الصّورة وكمال السّيرة، فهو ليس مثلهم ولا أدنى منهم، بل هو أرفع منهم وأعلاهم أُبَّهة، فكأنَّهم ذكروا ذلك اعترافًا منهم بعُلوِّه عليهم، فهو اعترافٌ صريحٌ بعُلوِّه عليهم؛ أيْ: آثره الله فرفعَه عليهم.

نكتة تكرار ﴿عَلَيۡنَآ﴾:

الاستعلاءُ باعتباراتٍ متباينةٍ ومقاماتٍ مختلفة

تكرَّر الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡنَآ﴾ في هذا المقطعِ القرآنيِّ، فجاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ من كلام إخوة يوسف ﷺ؛ وإنَّما قالوا ذلك استدرارًا لعطفه، وتحريكًا لمروءته وسخائه، ثم أخبروه بمطلبهم.

وجاء في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ من كلام يوسف ﷺ مُبيِّنًا لهم كرم الله عليه بما وصل إليه من العزَّة والحفظ والصيانة، ثمَّ جعَلَه الوزير المفوَّض في مُلك مصر، وجمعه بأخيه الَّذي فارقه منذ زمن بعيد لم يَدر ما خبره.

وجاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ من كلام إخوة يوسف ﷺ، بأنَّ الله قد فضَّله عليهم، فاختاره ليكون وارثًا نبوَّة أبيه، وآثره بالرِّفعة عليهم، فلم يكن لأحدهم مثل ما له من المكانة عند الله تعالى وعند أبيه يعقوب ﷺ.

ومجيء الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ هنا مُكرَّرًا جاء في موضعه اللّائق به حيث أثبت عُلوًّا مخصوصًا في كلِّ موضع من مواضع تكراره، ويُلحظ في هذا التَّكرار استعلاءٌ في كلِّ موضعٍ يليق به، وفي هذا التَّكرار دعوةٌ لمعرفةِ الفروق بين المقامات.

إصلاح ذي الحال سببٌ للرِّفعة وراحةٌ للبال

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ حاليَّة، والمعنى: حالُنا وشأنُنا أنَّنا كنّا مُذنبين بصنيعنا الَّذي صنعناه بك، ولذا أعزَّك الله

ورفعك، وأنزلنا منازلَ الخزي والعار والشّنار، و﴿وَإِن﴾ خففوها من الثّقيلة تأكيدًا بالإيجاز للدّلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرعِ وقتٍ[1].

بلاغةُ أسلوبِ القَصْر:

التَّوبة النصوح بدايتها الاعتراف بالذّنب

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ هل هي اللّام المزحلقة الدّاخلة على خبر ﴿وَإِن﴾، أو الفارقة إن جعلناها في تأويل: وما كنّا إلّا خاطئين، فهنا يكون قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا على طريقةِ النَّفي والاستثناء، فيكون اعترافًا صريحًا منهم بجُرم ما ارتكبوه من الخطأ في حقِّه ﷺ، فهم يقصرون فعلَهم على الخطأ المحضِ، وهذا مبالغةٌ في الاعترافِ بالخطأ.

براعة استعمال فعل الكون:

احرص على ماضٍ لا تعتذرُ عنه

التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ للدّلالة على تحقُّق وحصول وحدوث الجُرْم الَّذي ارتكبوه في حقِّه ﷺ؛ أيْ: لَمُتعمِّدين للذَّنب إذْ فعلنا ما فعلنا، فدلَّت (كان) هنا على مُضيِّ وقوع هذا منهم مع تأكيد ذلك الجُرْم أيضًا، وبيان أنَّهم ما كانوا على شيءٍ مثل كونهم خاطئين، فهو وصفٌ لكينونتِهم بالخطأ.

دلالة استعمال اسم الفاعل:

من تمامِ الاعترافِ بالذَّنبِ صحَّةُ وصفِه والإقرارُ بفُحْشه

التَّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ للدّلالة على ثبوت واستمرار هذا الخطأ، والخاطِئُ: فاعلُ الخطيئةِ، وكأنَّه وصمةُ عارٍ لحقت بهم في غيابه، وكان هذا الخطأ سببًا في بُعد أبيهم عنهم وذهاب بصره، ووقوفهم نادمين مذنبين أمام أهل مصر جميعًا، والمُراد باسم الفاعل هنا؛ أيْ: عريقين في الخطأ، وهو تعمُّد الإثم[2].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/203.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/203.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ التَّثريب:

كمالُ العفوِ والصَّفحِ التَّغاضي عن كبيرِ الذُّنوبِ وعظيمِ الخطايا

جاءَ اختيارُ لفظِ التَّثريبِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، والتَّثْريبُ هو التَّوْبيخُ والتَّقْريعُ، دون اللَّوم إذ المقامُ ليس مقامَ لوم، فاللّوم ما يُلام عليه الإنسانُ ولو كان شيئًا يسيرًا وما فعلوه ليس باليسير فلا يناسبه إلّا التّثريب، والتَّقريع إن أُريد هنا فلا يكون بمعناه الحقيقيّ، وإنَّما يكون للتَّأنيب والتَّعنيف بالكلام الموجع، وقد حصل في استعمال لفظ التَّثريب، وأمّا التَّوبيخ فهو إهانة النَّفس للنَّفس بتذكيرها ما فعلت ظنًّا منها أنَّها قد نسيت ما ارتكبته في حقِّ المظلوم وصاحب الحقِّ، وهو داخل في لفظ التَّثريب، فصار استعمال التَّثريب هنا شاملًا لجميع المرادفات من التَّوبيخ والتَّقريع واللّوم، فشمل جميعَ المعاني، وكان نفيُ التَّثريبِ نفيًا لجميعِ هذه المعاني من التَّقريعِ والتوبيخ واللَّوم مع الإيماءِ إلى استحقاقِهم لذلك، وهذا أبلغ في التَّسامح والتَّغاضي.

فائدة استعمال الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾:

الصَّفح الزّائد من شيم الكبار

ذُكر الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾؛ لِلتَّأْكيدِ، وهي مِثْل زيادَةِ (لَكَ) بَعْدَ (سَقْيًا ورَعْيًا)، فَلا يَكونُ قَوْلُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ من تَمامِ الجُمْلَةِ، ولَكِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلٍ ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾[1]، وقيل: إنَّ ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ متعلِّق بمُقدَّر واقع خبرًا لقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾.

توجيهُ الوقفِ على لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾:

الزَّمانُ متعلِّقٌ بفعل العافي لا بفعل غيره

ذكر الزَّمخشريُّ أنَّ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ إمّا أن يتعلَّق بالتّثريب؛ أيْ: لا تثريب اليوم عليكم، أو بالمُقدَّر في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ من معنى الاستقرار؛ أيْ: لا تثريب مستقرٌّ عليكم اليوم، أو بقوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ﴾، والمعنى: لا أُثرِّبكم اليوم، وهو اليوم الّذي هو مظنّة التّثريب، فما ظنّكم بغيره من الأيّام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/503.

وقد رفض أبو حيّان الاحتمال الأوّل وقَبِلَ الثّاني، وقال: وأمّا تَقْديرُهُ الثّاني فَتَقْديرٌ حَسَنٌ، ولِذَلِكَ وقَفَ على قَوْلِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أكثرُ القُرّاء، وابتدؤوا بـ ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]، وهذا أقوى في المعنى؛ لأنَّه علَّق الزَّمان بنفْي تثريبه هو عنهم، قال ابن الأنباريّ: "إنَّما أشار إلى ذلك اليوم؛ لأنَّه أوَّل أوقات العفو وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة"[2]، وأجاز الحوفيُّ أن يكون ﴿عَلَيْكُمُ﴾ في موضع الصِّفة لتثريب ويكون الخبر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، وهو وجه حسن"[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَغْفِرُ﴾ دون الماضي:

تتجدَّد المغفرة بتجدُّد التّوبة

التَّعبير بالمضارع يُفيد تجدُّد واستمرار فعل المغفرة، والمُراد في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ هو تجدُّدُ دعائه وطلبه لهم بأن يغفر الله لهم، قال الزَّمخشريّ: "يُقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعًا. ومنه قول المُشَمَّت: (يهديكم الله ويصلح بالكم)، و﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بشارة بعاجل غفران الله لما تجدّد يومئذٍ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم"[4].

وقال البقاعيّ: "ولعلّه عبّر في هذا الدّعاء بالمضارع إرشادًا لهم إلى إخلاص التّوبة، ورغَّبهم في ذلك، ورجّاهم بالصّفة الّتي هي سبب الغفران، فقال: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: وحده؛ ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾"[5].

فائدةُ بناءِ فعلِ المغفرة للفاعلِ:

الّـــذي يـملـك المغفرة والصَّفح هو الله تعالى

وردَ بناء الفعل ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مُسندًا إلى فاعله الحقيقيّ إذعانًا منه ﷺ، فإنَّ الَّذي يملك المغفرة والصَّفح هو الله تعالى، وذَكرَه هنا تربيةً للمهابة وإيقاعًا للاسم الجليل على أنفسهم وعلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/343.
(2) ابن الأنباريّ، البيان في غريب القرآن: 2/45.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/343.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/342.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/204.

قلوبهم لينزجروا، وليندموا على جَريرتِهم معه ومع أخيه، وتخويفًا من العودة إليها مرَّةً أخرى، وذكره للاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ مُسندًا إليه فعلُ المغفرة؛ إمّا مِن باب الحَيْطة في الأمر ليسدَّ عليهم منازعَ الجبروت والطُّغيان اللّذين كانا عليهما، وإمّا تعظيمًا وتبرُّكًا بالاسم الجليل لكونه هو القادر على قبول التَّوبة المخلصة.

دلالة اللّام:

الـرّاجـعُ إلى الحقِّ مخصوصٌ بالمغفرة

اللّام في قوله: ﴿لَكُمۡۖ﴾ للتَّخصيص، لكونهم المخصوصين بالدُّعاء بالمغفرة المُستحقّين لها لمّا أذعنوا إلى التَّوبة، ورأى في أعينهم النَّدم على ما فرط منهم، ومنهم مَن جعلها للتَّعدية، وهي الَّتي تعدّي العامل إلى المعمولِ؛ لأنَّ الفعلَ يضعفُ بتقديمِ المفعول عليه، فبعد أن أظهر لهم عفوه وصفحه عاد إليهم بغفران اللّه تعالى وقبول توبتهم، وإنابتهم إلى اللّه تعالى.

فائدة العطف بين الجُملِ:

التَّلويحُ بالرَّحمةِ مرسالُ التَّبشيرِ بالمغفرة

عُطفت هذه الجملة ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ على سابقتها للدُّعاء، والجملة هذه بمثابة التَّعليل لقوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾؛ أيْ: يغفر اللّه تعالى لكم لأنَّه أرحم الرّاحمين، وهي هنا لتحقيقِ حصول المغفرة؛ لأنَّه عفا عنهم، فاللّه أوْلى بالعفو والرّحمة لهم، وبيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء[1].

فائدة التَّعريف بالضَّميرِ وبتعريفِ الطَّرفيْن:

رحـمـتـه ﷻ محيطةٌ بعباده المُـنـيـبـين عـنـد الاعترافِ والأوبَةِ

جاءت الجملة ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ معرَّفة الطَّرفيْن بضمير الفصل الغائب؛ لأنَّ الغائب المُتحدَّث عنه سبق ذِكرُه في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ حتَّى يرتبط الكلام ببعضه، وفيه ما يدلّ على تَشوُّق النَّفس لمعرفة ما بعده. وبالجملة الاسميَّة؛ لتوكيد مزيد رحمته

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/215.

ﷻ بعباده المُنيبين إذا اعترفوا بذنبهم، والمُراد: تقرير المُسنَد إليه؛ أيْ: تحقيق مفهومه ومدلوله، وجعل هذا المدلول ثابتًا مُحقَّقًا مُستقرًّا لا يُظنَّ به غيره، وهو تخصيص المُسند إليه بحكم الرَّحمة، وأنَّها له وحده سبحانه "فالذَّنْبُ مَغْفورٌ لإِخْبارِ اللّه في شَرائِعِهِ السّالِفَةِ دونَ احْتياجٍ إلَى وحْيٍ سِوَى أنَّ الوَحْيَ لِمَعْرِفَةِ إخْلاصِ تَوْبَتِهِمْ"[1].

نكتة استعمال صيغة التَّفضيل:

الـلـه سبحانه جـديـر بـإدرار الـنِّـعـم بعد الإعـــاذة من النِّقم

استُعمل أفعلُ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ للتَّعظيم والتَّشريف، والمُراد: وهو أرحم الرّاحمين؛ فإنَّه يغفر الصَّغائر والكبائر، ويتفضَّل على التّائب، وهو هنا مُستعمل في العموم برحمته لجميع العباد، ولا سيَّما التّائب فهو سبحانه جديرٌ بإدرار النِّعم بعد الإعاذة من النِّقم، وأفعل التّفضيل "إذا أُضيف إلى جنسه لم يكن بعضه؛ فيصير المعنى: هو أرحم من الرّاحمين، وإذا ذُكر بعده جنسه أو واحدٌ من آحاد جنسه وجب إضافته إليه، الأصل فيه الأفضلية على ما أضيف إليه"[2].

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

رحمته سبحانه أعـظـمُ مـمّـا يُتصوَّر وأوسعُ مـمّـا يـعـرفـه البشرُ

ورد اسم الفاعل ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جمعًا؛ لكثرة الرّاحمين من الموصوفين بهذا الوصف، فجاء أفعل مميِّزًا له ﷻ عن سائر هؤلاء الرّاحمين، إذ رحمته ﷻ أوسع وأشمل وأعظم ممّا يُتصوَّر، وهي أوسع من جميعِ أنواع الرَّحمةِ الّتي يعرفها البشر؛ ولذا ورد الجمع مُضافًا إلى أفعل التَّفضيل؛ ليعكس هذا الشُّمول والعِظَم والسَّعة، فلا تصل رحمة مخلوق مهما كان إلى شيءٍ من رحمةِ الخالق ﷻ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/169، 168.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المَنُّ والتَّفضُّل:

التَّفضُّلُ زيادةٌ على المطلوبِ، والمِنَّةُ تذكيرٌ بالتَّفضيلِ

المِنَّة: هي النِّعمة المقطوعة من جوانبها كأنَّها قُطعتْ منها، ولهذا جاءت على مثال قِطْعة، وأصل الكلمة: القَطْع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت: 8]؛ أيْ: غير مقطوع، وُسمّي الدَّهر مَنونًا؛ لأنَّه يقطع بين الإلف، وسُمّي الاعتداد بالنّعمة مَنًّا؛ لأنَّه يقطع الشّكر عليها[1].

والمَنُّ يأتي و"يَحْتَمِلُ تأْويلَيْن: أحدهما: إحسانُ المُحْسِن غيرَ مُعْتَدٍّ بالإحسان، يُقالُ: لَحِقَتْ فُلانًا من فُلانٍ مِنَّةٌ إذا لَحِقَتْه نعمةٌ باسْتِنْقاذٍ من قَتْلٍ أو ما أشبهه. والثّاني: مَنَّ فلانٌ على فُلانٍ إذا عَظَّمَ الإحسان وفخَرَ بِهِ وأبدأ فيهِ وأعاد حَتَّى يُفْسده ويُبَغِّضه، فالأوّل حَسَنٌ؛ والثّاني قَبيحٌ. وفي أسماء الله تعالى: الحَنّانُ المَنّانُ؛ أيْ: الَّذي يُنْعِمُ غيرَ فاخرٍ بالإنعام"[2].

"والمِنَّةُ: النّعمة الثّقيلة، ويُقال ذلك على وجهيْن: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيُقال: مَنَّ فلانٌ على فلانٍ: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164]، والثّاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مُستقبَح فيما بين النّاس إلّا عند كفران النّعمة، ولقُبح ذلك قيل: المِنَّةُ تهدم الصّنيعة"[3].

وأمّا الفضلُ فيَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ. من ذَلِكَ الفَضْلُ: الزّيادَةُ والخَيْرُ. والإفْضالُ: الإحْسانُ[4].

وقيل: "الفَضْلُ: الزّيادة عن الاقتصاد، وذلك ضربان: محمودٌ:

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 209، 208.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (منن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (منن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).

كفضل العِلم والحِلم، ومذمومٌ: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه. والفَضْلُ في المحمود أكثر استعمالًا، والفُضولُ في المذموم، والفَضْلُ إذا استُعمل لزيادة أحد الشّيئَيْن على الآخر، وممّا نحن فيه الفضل من حيث الذّات، كفضل رجل على آخر، وهو عرضٌ يمكن اكتسابه[1].

التَّثريب، واللَّوم، والتَّوبيخ:

التَّثْريبُ: اللَّوْمُ والأخْذُ على الذَّنْبِ[2]؛ وهو التَّقريع، ولا يُعرف من لفظه إلّا قولهم: الثَّرْبُ، وهو شحمةٌ رقيقةٌ"[3]، والتَّثْريبُ كالتَّأْنيب والتَّعْييرِ والاسْتِقْصاءِ في اللَّوْم. والثّارِبُ: المؤَنِّبُ. يُقالُ: ثَرَبَ وثَرَّب وأثْرَبَ إذا وبَّخَ. والتَّبْكيتُ قَريبٌ مِنْهُ"[4].

اللَّوم يختص بالعتاب، والتَّثريب شاملٌ للَّوم والتّوبيخ والتّقريع، والتّوبيخ ما اشتمل على التَّهديد

وأمّا اللَّومُ فهو العَتْبُ والعَذْل، تَقولُ: لُمْتُهُ لَوْمًا، والرَّجُلُ مَلومٌ. والمُليمُ: الَّذي يَسْتَحِقُّ اللَّوْمَ. واللَّوْماءُ: المَلامَةُ، ورَجُلٌ لوَمَةٌ: يَلومُ النّاسَ. ولوْمَةٌ: يُلامُ[5]، واللَّوم: "عذْلُ الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم. يُقال: لُمْتُهُ فهو مَلومٌ. قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22] فإنه ذكر اللّوم تنبيهًا على أنَّه إذا لم يُلاموا لم يفعل بهم ما فوق اللّوم، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، ويُقال: رجل لوَمَةٌ: يَلومُ النّاسَ، ولوْمَةٌ: يَلومُهُ النّاسُ، نحو سُخَرَة وسُخْرَة، وهُزَأة وهُزْأة، واللَّوْمَةُ: المَلامَةُ، واللّائِمَةُ: الأمر الّذي يُلامُ عليه الإنسان"[6].

وأمّا التَّوْبيخُ: فهو التَّهْديدُ والتّأنيب واللَّوْمُ؛ يُقالُ: وبَّخت فُلانًا بسوءِ فِعْلِهِ تَوْبيخًا"[7].

(1) الرّاغب، المُفردات: (فضل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثرب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ثرب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ثرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لوم).
(6) الرّاغب، المُفردات: (لوم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وبخ).

قال أبو هلال: "التّثريب شبيه بالتّقريع والتّوبيخ، تقول: وبّخه وقرّعه وثرّبه بما كان منه، واللّوم قد يكون لما يفعله الإنسان في الحال، ولا يُقال لذلك تقريع وتثريب وتوبيخ، واللّوم يكون على الفعل الحسن، ولا يكون التّثريب إلا على قبيح، ويجوز أن يُقال: التّثريب: الاستقصاء في اللّوم والتّعنيف، وأصله من الثّرب وهو شحم الجوف؛ لأنَّ البلوغ إليه هو البلوغ إلى المواضع الأقصى من البدن، واللّوم هو تنبيه الفاعل على موقع الضّرر في فعلة وتهجين طريقته فيه، وقد يكون اللّوم على الفعل الحسن كاللّوم على السّخاء، والذّم لا يكون إلا على القبيح، واللّوم أيضًا يواجه به الملوم"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»